

جى دى موبسان

١٨٤٠ - ١٨٩٣

للأستاذ حسن فتحي خليل

١ - نشأته ونكبته وأسلوبه

ولد موبسان في قصر ميرو مسنيل في ٥ أغسطس سنة ١٨٤٠ وتلقى دروسه ببلدة ييفتو أولاً ثم ببلدة روان . وأمضى في ربوع مقاطعة نورماندى أسعد سني صباه وشبابه ، حراً طليقاً بعد دراسته اليومية ، كطائر سعيد . وكان يهيم بالطبيعة الساحرة في تلك المقاطعة حتى انطبعت في ذهنه صور كثيرة من حياة الفلاحين المحيطين به

وفي عام ١٨٧٠ التحق بالجيش المحارب وانغمس في ميدان الحرب كغيره من الشباب حينئذ ، وعاش في محيطها وتشبعت بها نفسه ، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها ذهب إلى باريس والتحق بوزارة البحرية أولاً كموظف صغير ، ثم انتقل منها إلى وزارة المعارف . وكان في أشد الإحتياج إلى مرتبه الحكومى ليقتات منه حتى تسمح له الظروف الحسنة التي تؤهله لأن يبدأ حياته الأدبية التي عاهد نفسه على بدئها منذ زمن بعيد

وقد هيات له تلك الوظيفة أن يختلط بطبقة الموظفين ، وأن يطلع على خفايا حياتهم وكل أحوالهم ، ولكن تلك النظرة التي كان ينظر بها إليهم كانت بشمور مزيح من العبث والسخرية . وانتقشت تلك الصور في ذهنه حتى انسابت من قلبه ، وظهرت واضحة جليلة في قصصه

وقد صرفته قوة بنيته ووجهه للعبث والفرق بين في بداية حياته عن مطالعة الأدب ، فلم يجهد نفسه في ذلك المضمار الإجهاد الكافي لأدب ناشئ . يحاول أن يكون نفسه . غير أن تلك الحياة التي كان يحياها قد أضافت صوراً جديدة إلى تجاربه إذ اختلط بالمجتمع الصاخب وانغمس في ملامه . وأول ما يتبادر إلى الذهن أنه كان مندفعاً نحو تلك الحياة اللاهية ليكمل منها صوراً لأدبه ؛ ولكن الحقيقة أنه إنما كان مندفعاً نحوها لكي يشمر نفسه بأنه

يمش المشية التي ترضى جسده وتشبع رغباته الجامحة . فقد كان قوى البنية ، مقتول العضلات ، محباً للرياضة وخاصة التجديف ، جريئاً لا يهاب إنساناً

كان فلوير أباه الفكرى ؛ إذ هو الذى أخذ على عاتقه أن يدخله إلى دنيا الأدب . وتحت سيطرته بذل موبسان كل جهده لأن يرتفع بأسلوبه إلى المرتبة التي تؤهله لأن يكون شاعراً مجيداً ؛ وكانت هذه هي منتهى آماله . كان فلوير يحذنه دائماً عن كرامة الفن وراجمات الفنان ؛ كما أنه غرس في نفسه كراهته للبرجوازيين والسخرية منهم ومن اعتقاداتهم العادية في كتبه . كما أخبره عن أهل الأدب في عصره وحذنه عنهم حديثاً مستفيضاً ؛ وطبعه على الاستخفاف بكل أدب تجارى رخيص ، ونصحته بالجد والاهتمام بتجويد كتابته ، وجعل نفسه مثلاً له يسير على متواله ؛ حتى أنه أشركه معه في تأليف كتابه « بوفار وبيكوشيه » فكان يرسله إلى بعض بقع الساحل النورماندى ليعود فيقصر عليه ما رآه . وما استولى عليه من إحساسات وشمور ، فيرسم الطبيعة كما يراها دائماً وليتنحصر من آراء زولا شبه العملية التي كانت سائدة يومئذ ، وأن تكون كل اتصالاته بالطبيعة خصب^(١)

وبذلك أحيا موبسان كل الصور النطبعة في مخيلته منذ طفولته وصباه ، وجعل ينظر إلى الطبيعة بمنظار صريح مستقيم سهل ، وبدل قصارى جهده لأن يكون أسلوبه طبيعياً كشاهداته ، فخلا أسلوبه من المبالغات الرومانتيكية للمشاهدة في أسلوب زولا والمحسنات اللفظية كأسلوب جونكور

وكان بطلع أستاذه فلوير على كل ما يكتبه فيصححه له ويرشده إلى طريق الصواب . وأهم مؤلفاته في ذلك الوقت ، وقت الاجتهاد والتحضير هي قصة « الدكتور هيرا كلوس جلوس » وأهم ما يميزها وضوح نظرية التشاؤم التي بدأ يأخذ بها موبسان . كما كتب في تلك الفترة عدة مسرحيات وقصص وأشعار على الخصوص . وقد جمع ما أعجبه من شعره في كتاب متهير اسمه : « مجموعة شعر »

وكانت تلك القطع التي نشرها إنما هي في الحقيقة أقاصيص شعرية ويلاحظ أنها بداية طيبة لما جاء بعدها . وأهم تلك القطع

« على ضفاف النهر » وقد رسم فيها ذكريات غرامه وألبسها ثوبا رومانتيكيا متحدثا عن الفرائز الحرة والذات الجسدية .

ثم نشر قصته المشهورة Boule de Suife فنجحت نجاحا عظيما وتنبيه الكل له وصعد درجات المجد وعاهد نفسه منذ ذلك اليوم أن يكون قصصيا بدلا من أن يكون شاعرا رغما عن إرادة أستاذه فلوير . ومع أنه كان قد أخفى تلك القصة عن أستاذه إلا أنه حين قرأها أعجب بها أشد الإعجاب وهناه عليها .

ومات فلوير فتحرر موبسان من سيطرته الأدبية التي كان يفرضها عليه ، وأصبح حراً في معتقداته وسار في الطريق التي رسمها لنفسه .

٢ - أفكاره وآراؤه

كانت لموبسان عين ناقبة تلاحظ الصور وحركاتها بسرعة فائقة ودقة آلة فوتوغرافية ، فسرعان ما تنطبع تلك المرئيات في ذهنه فيتميق في فهمها جيداً حتى يهضمها تمام الهضم . فن صباحه إلى مساءه كان يجمع ويلاحظ كل ما يفيد في مهنته الأدبية ، ولذلك نلاحظ أن كتاباته لم تكن تظهر بمظهر الكتاب النفسيين (السيكولوجيين) بل هي منقطعة من الحياة إذ فيها ألوانها وأشكالها وحركاتها .

وتدور قصصه على ناحيتين : أولاهما الناحية المرحية والحياة الاجتماعية الصاخبة التي كانت تشتهر بها فرنسا ، والأخرى قصصه عن الريف النورماندي وذكريات حياته التي قضاها فيه وحديثه اللذيذ عن الأرض والطبيعة والفلاح .

وترجم كل مؤلفاته في مختلف أطوار حياته ونظرياته عن المجتمع . ففي مؤلفاته الأولى نلاحظ السخرية اللاذعة . ففي قصة Boule de suife لم يترك فرصة سواء في العربة أو الحانة دون أن يهزأ بالأشراف والطبقة المتوسطة والراهبات . ثم ظهرت في الحقبة التي تلي ذلك من حياته إحساسات الرحمة والشفقة . أما في نهايته فكان التشاؤم ومشاغله ومتاعبه النفسية أوضح ما في كتبه في ذلك الحين . فأفكاره في ارتفاعها وانخفاضها إنما كانت تتبع ميزان صحته الجسدية في قوتها وهزالها .

كان أستاذه فلوير يعتقد أن الفن يخفف من عبء الحياة ويجعلها سهلة لينة ، ولم ييأس من تقدم العلوم ولم ينكر بلوغ

النجاح ، إلا أن موبسان الذي كان يستمع لتلك الآراء لم تكن لديه الثقة الكافية في الحياة . فن مبدأ حياته كانت فلسفته اليائسة المتشائمة فوق المادة . فلم تجذبه فكرة فلوير السليمة بقدر ما جذبته حكمة شوبنهاور القائلة : « إنه لا سعادة على الأرض » وبالرغم من تكرار موبسان لنظريته المتشائمة في قصصه كثيراً لم تكن لتستند على براهين قوية . بل كل ما في الأمر أنه كتبها بشعور صادق قوى . وكان يبعث ذلك التشائم نظريته المجردة إلى الحياة الواقعية . فكان يعتقد أن الكون مجموعة متضاربة متطاحنة من القوى ، وأن العلم لا يطيننا سوى فكرة ضئيلة عن هذه القوى بواسطة آلات أولية ناقصة في بعض الحالات فقط . وأنه ليس هناك أمل في التقدم أو النجاح ، إذ أن نظرية التقدم ما هي إلا نظرية فاشلة ، وأن الإنسان حيوان أرق قليلاً من الحيوان الأعجم . ولعل هذه النظريات قد تبادلها غيره من قبل إلا أنها كانت شديدة التأثير على شعوره . وإنما يعود ذلك إلى مرضه الذي أصيب به ، حتى أنه أصبح يخاف الرسائل التي تصله كما كان يفزع من علامات الود والمحبة التي يظهرها أصدقاؤه ، إذ خيل إليه أنها محاولات اعتداء على حرته . فهو يفسر نظريته هذه بأن هؤلاء الأصدقاء إنما يشعرون بفقره كبير في حياتهم ، فيحاولون أن يتعلقوا بأهداب إنسان آخر يملأون به ذلك الفراغ . وبذلك أصبح موبسان يعتقد أن الصداقة والحب إنما هما نفاق وسراب ، وأن الصلة بين كل رجل وآخر معدومة ، إذ لا يمكن لأحدهما أن يفهم الآخر تمام الفهم . وعلى ذلك يجب على كل فرد أن يكون وحيداً ، وبذلك امتزجت رغبته في الوحدة بخوفه من المجتمع . ألا أنه في وحدته كانت تنهيا له خيالات يتوهم معها أن هناك شبيهاً آخر يشاركه مجلسه فيبعث الخوف إلى نفسه ويدفعه دفعا نحو الاختلاط بالآحياء الذين لم يعد يفهمهم جيداً . وقد زاد ذلك التعذيب خوفه من الشيخوخة والموت . فكانت فلسفة التشاؤم التي يسير على هديها تدفعه إلى الثورة دائماً . وأخيراً لم يجد منفذاً لهذه الخواطر والأفكار التي تمنع بها رأسه حتى كان يرفض أي مناقشات أدبية ، وأصبح يعتقد أنه ليست هناك أية قيمة للأدب ، وأنه إنما يكتب تلك الأسطر لكي يكتسب منها بعض المال

تدرس بالمدارس لأنها غذاء طيب للعقول . ففى أمريكا وألمانيا تعتبر مؤلفاته من أهم مختارات الدراسة بمدارسها . كما وضعت أعماله فى برامج الامتحانات العليا بفرنسا ؛ وقدمت عنه بعض الرسائل كما جمعت أعماله وطبعت كلها فى مجلد كامل كأعمال فلوير ولزك . فمن عام ١٨٨٠ إلى عام ١٨٩٠ نشر موبسان حوالى ثلثمائة أقصوصة جمعت فى مجلدات هى :

La Maison Tellier	سنة ١٨٨١
Clair de Lune	
Contes de la Becasse Mlle. Fifi	سنة ١٨٨٣
Miss Harriell	سنة ١٨٨٤
Yvette	
Les Soeurs Rondoli	سنة ١٨٨٥
La Petite Rogue	
Contes du jour et de la nuit	
M. Parent	سنة ١٨٨٨
Le Rosier de Mme Husson	سنة ١٨٨٧
La Horla	سنة ١٨٨٦
Toine	سنة ١٨٩٠
L'Inutile Beauté	سنة ١٨٨٩
La Main Gauche	سنة ١٨٨٩

كما نشر ست قصص طويلة وثلاثة كتب عن الرحلات وأربع مسرحيات .

من أشهر مؤلفاته

وفى عام ١٨٨٩ بدأ يفكر فى الانتحار كما يتضح لنا من قصة l'endormeuse إذ تخيل فيها انتحاراً قانونياً يسمح لليائسين أن يناموا إلى الأبد باسمين مرئى الضمير . وقد طرقت هذه الفكرة مخيلته كثيراً فى أيامه الأخيرة حتى تم بتنفيذها ، وكان حينئذ فى طريقه إلى الجنون الذى أراحه من غناء هذه الدنيا وتفكيره الأسود فى كل أحوالها

وعلى ذلك فإذا تدبرنا حال هذا الشاب الموقور الصحة فى مبدأ حياته ، والذي هذه المرض فى آخريات أيامه حتى ساقه إلى الجنون فبدأ يسمع نداءات الموت ترن فى أذنيه ، أمكننا أن نتتبع النفثات الصادرة من مؤلفاته فى هذه الأطوار

٣ - نهاية

سبق أن قلنا إنه بالرغم من مظهره القوي فإن صحته بدأت تهتم منذ عام ١٨٨٤ ؛ ثم ظهرت عليه بوادر الجنون فى عام ١٨٩١ . وفى أول يناير سنة ١٨٩٢ حاول الانتحار فى بلدة (كان) ولكنه فشل . وأدخل مصحة الدكتور بلانش حتى توفي فى ٦ يوليو سنة ١٨٩٣ وهو على حاله من الجنون

٤ - مؤلفاته

يعتبر موبسان من أشهر كتاب الأقصوصة ؛ ويمكننا أن نضمه الآن إلى زمرة الكتاب الكلاسيك ؛ إذ أن أعماله

ظهر حديثاً

الجزء الرابع من كتاب

فيض الخاطر

للأستاذ أحمد بك أمين

تتم كل جزء من الأجزاء الأربعة ٢٥ قرشاً
عنداً أجرة البريد

ملزمة نشره

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى بالقاهرة

الصديق أبو بكر

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

ثمنه ٣٠ قرشاً عنداً أجرة البريد ٤٣ مليماً داخل القطر
و ٨٠ مليماً خارج القطر

ملزمة النشر

مكتبة النهضة

٩ شارع عدلى بمصر